تعليقات الشيخ صالح بن عبداللّه العُصَيْمِي

على القواعدِ الأربع

بسم الله الرحمن الرحيم

أسأل الله الكريم ربّ العرش العظيم أن يتولاّك في الدنيا والآخرة ، وأن يجعلك مباركًا أينما كنت ، وأن يجعلك ممّن إذا أُعطيَ شكر ، وإذا ابتُلي صبر ، وإذا أذنب استغفر ، فإنّ هؤلاء الثلاث عنوان السعادة .

📌 ابتدأ المصنف -رحمه الله- رسالته بالبسملة مقتصرًا عليها اتباعًا للسُّنة فيما استفتح به النبي ﷺ رسائله إلى الملوك ، والتصانيف تجري مجراها .

ثم دعا لَمَنْ يقرؤها بثلاث دعوات جامعة :

1️⃣ أن يتولاه الله في الدنيا والآخرة ؛ فيكونَ وليّه الله .

📎 والوليُّ من أسماء الله الحُسنى ، ومعناه : المتصرف في خلقه عامة بتدبيرهم ، وفي المؤمنين خاصة بما ينفعهم في الدنيا والآخرة .

2️⃣ أن يجعله مباركًا أينما كان ، أي : سببًا لكثرة الخير ودوامه .

3️⃣ أن يجعله مِمَنْ إذا أُعطي شكر ، وإذا ابتُلي صبر ، وإذا أذنب استغفر ، وعدَّهن المصنف عنوان السعادة .

📎 وعنوان الشيء : ما يدل عليه ، ومنه عنوان الكتاب والسكن عَلَمًا لما يدلّ عليهما ؛
فعنوان الكتاب هو : اسمه ، وعنوان السكن هو : موضع السكنى .

📎 والسعادة هي : الحال الملائمة للعبد .

👈 والعبد مُقلَّب بين ثلاثة أحوال : نعمة واصلة ، ومصيبة فاصلة ، وسيئة حاصلة ؛
وهو مأمور : 🔷 عند نزول النعمة بشكرها .
🔷 وعند وقوع المصيبة : بالصبر عليها .
🔷 وعند مُقارفة السيّئة : بالاستغفار والتّوبة منها .

💡 فمَنْ امتثل المأمور به في هذه الأحوال صار سعيدًا ، وهذا معنى كونهنَّ عنوانًا للسّعادة .

اعلم أرشدك الله لطاعته : أن الحنيفيّة ملّة إبراهيم : أن تعبد الله وحده مخلصاً له الدين ،
وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها ،
كما قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات :56] .

📌 ذكر المصنف –رحمه الله– أن الحنيفية مِلّةُ إبراهيم –عليه السلام– ، مبيّنًا حقيقتها بقولٍ جامع تندرج فيه معانيها الشرعية .

📎 فإن الحنيفية في الشرع لها معنيان : 1 عامٌ : وهو الإسلام
2 خاصٌ : وهو الإقبال على الله بالتوحيد ، ولازِمُه المَيْلُ عن كلّ ما سواه .

📖 والمذكور في قول المصنف : «أن تعبد الله مخلصًا له الدين» هو مقصود الحنيفية ، ولُبّها المحقِّقُ وَصْفَها الجامع للمعنَيَيْنِ معًا .

👈 وهي دِينُ الأنبياء جميعًا ، فلا تختصّ بإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ووقع في كلام المصنّف نِسبتُها إليه تبَعًا لِما في القرآن .

👈 وموجِبُ نِسبتها إليه ثلاثة أمور :

🔷 أن الذين بُعث فيهم نبيّنا ﷺ كانوا يذكرون أنّهم من ذريَّة إبراهيم ، وأنهم على دينه ؛
فأجدر بهم أن يكونوا مثله حُنَفاء للهِّ غيرَ مشركين به .

🔷 أن الله جعل إبراهيم إمامًا لِمَنْ بعده من الأنبياء بخلاف من تَقَدَّمه ؛ فلم يجعل أحدًا منهم إمامًا لِمَنْ بعده من الأنبياء .
ذكره ابن جرير في تفسيره .

🔷 أنّ إبراهيم بلغ الغاية في تحقيق الحنيفيّة حتّى نزل من ربّه في مرتبة الخُلّة ، ولم يُشاركه سوى نبيّنا ﷺ ،
وابراهيم والدٌ ، ونبيّنا ﷺ وَلَدٌ ؛ فالنسبة إلى الجَدّ أولى مِن النسبة إلى الذّرّية .

📌 والناس جميعًا مأمورون بعبادة الله التي هي مقصود الحنيفية ، ومخلوقون لأجلها ،
والدليل قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات] .

👈 ودلالة الآية على المسألتين من جهتين : 1 صريح نَصِّها المبينّ أن الناس مخلوقون للعبادة .
2 لازِمُ لفظها المبينّ أنهم مأمورون بها ، فما خُلِقوا لأجْله فهم مأمورون بفعله .

فإذا عرفت أنّ الله خلقك لعبادته فاعلم : أنّ العبادة لا تسمّى عبادة إلا مع التوحيد ،
كما أنّ الصلاة لا تسمّى صلاة إلا مع الطهارة ،

📌 لما قرر المصنف -رحمه الله- أن حكمة خلقنا هي عبادة الله بينّ أنَّ عبادته لا تُسمى عبادة إلا مع التوحيد ، فمَنْ زعم أنه يعبد الله وهو غير موحد له فلا اعتداد بعبادته وهو كاذب في دعواه .

✒️ وعبادة الله لها معنيان في الشرع :

1️⃣ عام ؛ وهو : امتثال خطاب الشرع المقترن بالحب والخضوع .

2️⃣ خاص ؛ وهو : التوحيد .

✒️ والتوحيد له معنيان شرعًا :

1️⃣ عام ؛ وهو : إفراد الله بحقّه ،

2️⃣ خاص ؛ وهو : إفراد الله بالعبادة .

📎 وحقّ الله نوعان : 🔶 حقّ في المعرفة والإثبات ، 🔶 وحق في الإرادة والطلب ،

📎 وينشأ من هذين الحقين أنَّ الواجبَ لله في توحيده ثلاثة أنواع :

🔷 توحيد في الربوبية ، 🔷 وتوحيد في الألوهية ، 🔷 وتوحيد في الأسماء والصفات .

📌 والعبادة والتوحيد أصلان عظيمان تتحقّقُ صِلَتُهما اتفاقًا وافتراقًا بحسب المعنى المنظور إليه ؛ فلهما حالان :

👈 الحال الأولى : اتفاقهما إذا نُظِرَ إلى إرادة التقرب ؛ أي : قصد القلب إلى العمل تقرُّبًا إلى الله فيكونان حينئذ : متحدين في المسمى ؛ فكل عبادة يُتقرَّب بها إلى الله توحيد له ، وهذا معنى قول المصنف : «فاعلم أن العبادة لا تُسمى عبادة إلاَّ مع التوحيد» .

👈 والحال الثانية : افتراقهما إذا نُظِر إلى الأعمال المتقرَّب بها ، أي : آحاد القُرَب التي تُجعَل لله ، فإنّ التوحيد يكون فرداً مِن أفرادها .

💎 فالتوحيد والعبادة يتّفِقان في إرادة التقرب ، ويفترقان فيما به إلى الله يُتقرَّب . 💎

فإذا دخل الشرك في العبادة فسدتْ كالحدَث إذا دخل في الطهارة .
فإذا عرفتَ أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النار .
عرفتَ أنّ أهمّ ما عليك : معرفة ذلك ، لعلّ الله أن يخلّصك من هذه الشَّبَكة ، وهي الشرك بالله الذي قال الله تعالى فيه :
﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[النساء :116] ،

📌 نبّه المصنف إلى مُفْسِدِ العبادة الأعظم وهو : الشرك .

✒️ والشرك شرعًا له معنيان :

1️⃣ عام ؛ وهو : جعْل شيء من حق الله لغيره .

2️⃣ خاص ؛ وهو : جعْل شيء من العبادة لغير الله .

✒️ وأثرُ الشرك إذا دخل العبادة يختلف باعتبار قدره ؛ فإنه نوعان :

1️⃣ الشرك الأكبر ؛ وهو : جعْل شيء من حق الله لغيره يزول به أصل الإيمان .

2️⃣ الشرك الأصغر ؛ وهو : جعْل شيء من حق الله لغيره يزول به كمال الإيمان .

📎 والفرق بينهما يرجع إلى مُتعلَّقِ (الحقّ) ، ومنزلتِه من الإيمان فيما يزيل منه ؛

👈 فما أزال أصل الإيمان فهو : شرك أكبر ،

👈 وما أزال كمال الإيمان فهو : شرك أصغر .

والمقصود منه في قول المصنف : «فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت» هو الشرك الأكبر ،
لقوله : «فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النار» .

✒️ ونجاسة الشرك أعظم النجاسات ، وكما يُؤمر العبد بدفع النجاسة الظاهرة عنه- عند إرادة الصلاة -في بدنه ، وثوبه ، والبقعة التي يصلي عليها فإنه يُؤمر بتطهير أعماله كلها من الشرك لأنه غير مغفور له .

✒️ وتقدّم أن قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغفِرُ أَن يُشرَكَ بِهِ وَيَغفِرُ ما دونَ ذلِكَ لِمَن يَشاءُ﴾ [النساء :48] الآية ، عامة في الشرك كله -في أصح القولين- لأن الفعل المضارع «يُشرَك» يُؤوَّل مع «أَنْ» مصدرًا تقديره «شركًا» فيقع نكرة في سياق نفي ، والنّكرات في سياق النفي توجب العموم في كلام العرب .

وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالى في كتابه .

📌 مما يعين العبدَ على معرفة الشرك ليحذره : معرفة أربع قواعد ذكرها الله في كتابه تُبينِّ حال المشركين الذين بُعث فيهم النبي ﷺ وما كان يدعوهم إليه ، وتتضح بها حقيقة الشرك ، ويتميز بها دين المسلمين عن دين المشركين وهي القواعد التي ذكرها المصنف في هـذه الرسالة .

💡 فغاية هذه القواعد : هي التفريق بين دين المسلمين ودين المشركين ، ومردها إلى أمرين :

1️⃣ معرفة الدين الذي جاء به النبي ﷺ .

2️⃣ معرفة حال المشركين الذين بُعث فيهم .

👈 واستمداد تلك القواعد عند المصنف من القرآن الكريم ، وما فيها من أدلة السُّنة تابع له .

👈 والمراد بالقاعدة في هذا الموضع أعمّ من إطلاق الفقهاء ، فهي ألصق بمعناها اللغوي ؛

📎 فمعناها لغةً : الأساس ، فكل واحدة منها تعد أساسًا من أسس الدين ، وأصلاً من أصوله .

👈 فوعاؤها الجامع : قواعد الشريعة .

ويجوز إرادة المعنى الاصطلاحي ؛ فتكون قواعد للتوحيد ، لكنّ الأظهر إرادة المصنف المعنى الأوّل .

القاعدة الأولى :

أن تعلم أنّ الكفّار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يُقرُّون بأنّ الله تعالى هو الخالق المدبِّر ، وأنّ ذلك لم يُدْخلْهم في الإسلام ، والدليل : قوله تعالى﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾[يونس :31] .

📌 مقصود هذه القاعدة : بيان شيئين :

1️⃣ أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مُقرُّون بتوحيد الربوبية ، وهو إفراد الله في ذاته وأفعاله ،

📎 وأشار إليه بقوله : «مقرون بأن الله تعالى هو الخالق المدبر» لأن الخلق والتدبير من أعظم أفعال الربوبية .

2️⃣ أن إقرارهم بتوحيد الربوبية فقط لم يدخلهم الإسلام ، ولم يعصم دماءهم ؛ لأن النبي ﷺ أثبت لهم وصف الكفر وقاتلهم ، فلو كانوا بإقرارهم بالربوبية مسلمين لما طالبهم بالإسلام وقاتلهم عليه .

📖 واستدل على ما ذكره بقوله تعالى : ﴿قُل مَن يَرزُقُكُم مِنَ السَّماءِ وَالأَرضِ﴾ [يونس :31] الآية . . . ، وهي دالة على الأمرين معًا ؛

👈 فأما دلالتها على الأمر الأول : فهو إقرارهم بأن الرَّزْقَ وَالْمُلْكَ والتدبير كله لله ، إذ يقرون فيقولون : ﴿اللهُ﴾ .

👈 وأما دلالتها على الأمر الثاني : فهو في إنكار الله عليهم عبادة غيره ؛ إذ قال : ﴿فَقُل أَفَلا تَتَّقونَ﴾
أي : فقل لهم -إقامةً للحجة عليهم- : أفلا تتقون ربكم فتخلصون له العبادة؟!

💎 فمطالبتهم بتوحيد الألوهية برهان عدم انتفاعهم بما آمنوا به من الربوبية .

القاعدة الثانية :

أنّهم يقولون : ما دعوناهم وتوجّهنا إليهم إلا لطلب القُرْبة والشفاعة ،

فدليل القُربة قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[الزمر :3] .

ودليل الشفاعة قوله تعالى :﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[يونس :18] ،

📌 مقصود هذه القاعدة : بيان أن الحامل للمشركين على دعوة غير الله والتوجه إليه شيئان :

1. طلب القربة ، والدليل قوله تعالى : ﴿وَالَّذينَ اتَّخَذوا مِن دونِهِ أَولِياءَ ما نَعبُدُهُم إِلّا لِيُقَرِّبونا إِلَى اللَّهِ زُلفى﴾ [الزمر : ٣] .
2. طلب الشفاعة ، والدليل قوله تعالى : ﴿وَيَعبُدونَ مِن دونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُم وَلا يَنفَعُهُم وَيَقولونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِندَ اللَّهِ﴾ .

✒️ والفرق بين طلبهم القربة وطلبهم الشفاعة :

- 🔶 أنهم يبتغون بالقربة إحراز الرفعة والكمالات ،
- 🔶 ويبتغون بالشفاعة دفع النقائص المعيبات .

📌 وقد أبطل الله ما ابتغوْه من القربة والشفاعة ؛

- 🔷 فأما طلب القربة باتخاذهم الأولياء فأبطله الله بنفي وجودهم ، كما قال تعالى مخبراً عن حالهم وقالهم :
﴿وَالَّذينَ اتَّخَذوا مِن دونِهِ أَولِياءَ ما نَعبُدُهُم إِلّا لِيُقَرِّبونا إِلَى اللَّهِ زُلفى﴾ [الزمر : ٣] ،
فأكذبهم الله بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهدي مَن هُوَ كاذِبٌ كَفّارٌ﴾ .

📎 والولي المنفي عن الله هو الولي الناصر ، امّا الولي المنصور فهو ثابت في غير آية .

- 🔷 وأما الشفاعة التي يطلبون من آلهتهم فأبطلها الله بأربعة مسالك :

1. نفي وقوع الشفاعة من آلهتهم ، قال الله تعالى : ﴿وَلَم يَكُن لَهُم مِن شُرَكائِهِم شُفَعاءُ وَكانوا بِشُرَكائِهِم كافِرينَ﴾ [الروم : ١٣]
2. نفي ملك آلهتهم الشفاعة ، وتحقيق أنها لله وحده ، كما قال الله تعالى : ﴿قُل لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَميعًا﴾ [الزمر : ٤٤] .
3. امتناع شفاعة الشفعاء إلا من بعد إذن الله ورضاه ، كما قال الله تعالى : ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفاعَةُ عِندَهُ إِلّا لِمَن أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ : ٢٣] ، وقال : ﴿وَكَم مِن مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغني شَفاعَتُهُم شَيئًا إِلّا مِن بَعدِ أَن يَأذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشاءُ وَيَرضى﴾ [النجم : ٢٦] .
4. إبطال انتفاع الكافرين بشفاعة الشافعين ، قال الله تعالى : ﴿فَما تَنفَعُهُم شَفاعَةُ الشّافِعينَ﴾ [المدثر : ٤٨] .

والشفاعة شفاعتان : شفاعة منفيّة وشفاعة مثبَتة :

فالشفاعة المنفيّة ما كانت تُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلاّ الله ، والدليل : قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[البقرة :254] .

والشفاعة المثبتة هي : التي تُطلب من الله ، والشّافع مُكْرَمٌ بالشفاعة ، والمشفوع له : من رضيَ اللهُ قوله وعمله بعد الإذن كما قال تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾[البقرة :255] .

📌 والشفاعة التي يذكرها المتكلمون في أبواب الاعتقاد يريدون بها الشفاعة عند الله .

🖋 وتعريفها شرعًا هي : سؤال الشافع اللهَ حصول نفع للمشفوع له ،

🖋 والنفع يتضمن جلب خير له أو دفع شرّ عنه ،

وهي نوعان :

1️⃣ شفاعة منفية ، وهي التي نفاها الله عز وجلّ ، وحقيقتها : الشفاعة الخالية من إذن الله ورضاه ، وهي نوعان :

- 🔷 المنفية عن الشافع ، ومنها المنفية عن آلهة المشركين .
- 🔷 المنفية عن المشفوع له ، كالشفاعة المنفية عن الكافر .

📖 وذكر المصنف قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا أَنفقوا مِمّا رَزَقناكُم﴾ الآية دليلاً على الشفاعة المنفية للتصريح بنفيها في قوله : ﴿وَلا شَفاعَة﴾ .

2️⃣ شفاعة مثبتة : وهي التي أثبتها الله لِمَنْ شاء ، وحقيقتها : الشفاعة المشتملة على إذن الله ورضاه ، وهي كذلك نوعان :

- 🔷 المثبتة للشافع ، ومنها : شفاعة نبينا ﷺ .
- 🔷 المثبتة للمشفوع له ، ومنها : الشفاعة لأهل الكبائر من هٰذه الأمة .

📖 وذكر المصنف قوله تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذي يَشفَعُ عِندَهُ إِلاّ بِإِذنِه﴾ دليلاً على الشفاعة المثبتة للتصريح بإثباتها في قوله : ﴿إِلاّ بِإِذنِه﴾ ، فمعنى الآية : لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه .

📖 والفرق بين الشفاعة المثبتة والشفاعة المنفية : هو المذكور في قول المصنف : «ما كانت تُطلَب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله» وقوله : «والشفاعة المثبتة هي التي تُطلَب من الله» .

📌 ومدار النفي والإثبات في الشفاعة على أمرين : إذن الله ورضاه ؛ فمع النفي يكونان مانعين منها ، ومع الإثبات يكونان شرطين لها .

📖 والشافع مُكرَم بالشفاعة كما قال المصنّف ، فالله متفضّل عليه بها إكراما له .

القاعدة الثالثة :

أنّ النبي ﷺ ظهر على أُناسٍ متفرّقين في عباداتهم منهم مَن يعبُد الملائكة ، ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين ، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار ، ومنهم مَن يعبد الشمس والقمر ، وقاتلهم رسول الله ﷺ ولم يفرق بينهم .

والدليل قوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[الأنفال: 39].

ودليل الشمس والقمر قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسجُدوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُم إِيَّاهُ تَعبُدونَ﴾[فصلت :37] .

ودليل الملائكة قوله تعالى : ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾[آل عمران :80] .

ودليل الأنبياء قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾[المائدة :116] .

ودليل الصالحين قوله تعالى :﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ . . .﴾ الآية [الإسراء :57] .

ودليل الأشجار والأحجار قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى(19)وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾[النجم :19-20] .

وحديث أبي واقدٍ الليثي – رضي الله عنه – قال : خرجنا مع النبي ﷺ إلى حُنين ونحنُ حدثاء عهدٍ بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها : ذات أنواط ، فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله إجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . . . الحديث .

📌 مقصود هذه القاعدة : بيان أن مناط الكفر : عبادة غير الله دون نظر إلى منزلة المعبود ،

💎 فمَنْ يعبد النبي والولي والملك هو كمَنْ يعبد الشجر والحجر وأجرام الفلك ،

👈 فالنبي ﷺ ظهر على أناس من الكفار متفرقين في عباداتهم –أي : متفرقين فيها من جهة مألوهاتهم التي يعبدون– ؛ فأُقيم المصدر «عباداتهم» مقام اسم المفعول «معبوداتهم» للدلالة على ثبوت معنى العبادة المراد واستقراره .

📖 ويبينه قول المصنف : «منهم مَنْ يعبد الملائكة ، ومنهم مَنْ يعبد الأنبياء والصالحين . .» إلى آخر ما ذكر .

📌 وقد قاتلهم رسول الله ﷺ وأكفرهم ولم يفرق بينهم لأنهم –وإن اختلفوا في معبوداتهم– فقد اجتمعوا في موجب الكفر وهو عبادة غير الله ، فلا يختص التكفير والقتال بمَنْ عبد الأصنام ؛ فكل مَنْ عبد غير الله فهو حقيق بالتكفير والقتال .

📖 والدليل –كما قال المصنف– قوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال :39] ؛

🔺 فأعظم الفتنة : عبادة غير الله ، 🔺 وأصل الدين : توحيد الله .

وقد ذكر المصنف أدلة ما قرره من تفرق معبوداتهم ؛

👈 فإن قوله : «ودليل الشمس والقمر» ونظائره يريد به دليل وقوع عبادتها من دون الله .

👈 وجميع أدلة ذلك من القرآن سوى أحد دليلي عبادة الأشجار والأحجار وهو حديث أبي واقد الليثي –رضي الله عنه– قال : «خرجنا مع النبي ﷺ إلي حنين ونحن حدثاء عهد بكفر . .» . الحديث . رواه الترمذي وإسناده صحيح .

القاعدة الرابعة :

أنّ مشركي زماننا أغلظ شركـًا من الأوّلين ، لأنّ الأوّلين يُشركون في الرخاء ويُخلصون في الشدّة ،
ومشركوا زماننا شركهم دائم ؛ في الرخاء والشدّة .
والدليل قوله تعالى : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[العنكبوت :65] .

📌 مقصود هذه القاعدة : بيان غِلَظ شرْك أهل زمانه فمَنْ بعدهم من المتأخرين ، وأنهم أغلظ شركًا من الأولين .

👈 ومنفعة تقرير غِلَظه : تحقيق أنهم بتلك الحال التي هم عليها أولى بالتكفير والقتال من المشركين الأولين ؛
وهو المصرح به عند المصنف في كتابه الآخر «كشف الشبهات» .

📖 وذِكْره المشركين لتعيين الكفر الذي وُصفوا به قبل في قول المصنف : «أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ»
فهم كفروا بالشرك .

📌 ومجموع الأدلة الشرعية والوقائع القدرية يدل على أن شرْك المتأخرين أغلظ من شرك الأولين من اثني عشر وجهًا :

1️⃣ الوجه الأول :

🔶 أن الأولين يشركون في الرخاء ويخلصون في الشِّدة ،

🔷 أما المتأخرون فيشركون في الرخاء والشِّدة ،

📖 ذكر هذا الوجه المصنف هنا في القواعد الأربع وفي كشف الشبهات أيضًا ، وجعل دليله الآية المذكورة من سورة العنكبوت ، فركوب البحر في الفلك –وهو السفينة– حال شدَّة ؛ لامتلاء قلوبهم بالخوف ، وهم فيها مخلصون يدعون الله وحده ، فإذا صاروا إلى البر وكانوا في رخاء أشركوا بالله ودعوا معه غيره ، وذكَره بعد المصنف جماعة منهم حفيداه سليمان بن عبد الله ، وعبد الرَّحمن بن حسن ، وعبد الله أبا بُطَيْن ، وسليمان بن سِحْمَان .

2️⃣ الوجه الثاني :

🔶 أن الأولين كانوا يدعون مع الله خلقًا مقربين من الأنبياء والملائكة والصالحين ، أو يدعون أشجارًا وأحجارًا ليست عاصية ،

🔷 وهؤلاء المتأخرون يدعون مع الله الفسّاق والفجّار .

📖 ذكر هذا الوجه المصنف أيضًا في كشف الشبهات .
وبيّن تحقق وقوعه : عَصْرِيُّهُ محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني في «تطهير الاعتقاد» .

3 الوجه الثالث :

🔶 أن الأولين يعتقدون أن ما هم عليه مخالف دعوة الأنبياء والرسل ، فإنهم قالوا : ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلهًا واحِدًا إِنَّ هذا لَشَيءٌ عُجابٌ﴾ .

🔷 أما المتأخرون : فإنهم يدّعون أن فعْلهم موافق دعوة الأنبياء والرسل .

📖 ذكر معنى هذا الوجه عبد اللطيف بن عبد الرَّحمن في رده على داود بن جَرْجِيس ، وذكره كذلك تلميذه سليمان بن سِحْمَان .

4 الوجه الرابع :

🔶 أن المشركين الأولين كانوا لا يشركون بالله في شيء من الملك والتصرف الكلي العام ؛ بل كانوا يقولون : في تلبيتهم : «لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك» .

🔷 أما المتأخرون : فجعلوا لَمَنْ يعظمونه ملكًا وتصرفًا في الكون ، وقصدوهم على أن لهم تدبير العالم وما يجري فيه ، وهذا شرك لم تعرفه الجاهلية الأولى .

📖 ذكر معنى هذا الوجه عبد الله بن فيصل ابن سعود .

5 الوجه الخامس :

🔷 أن كثيرًا من المتأخرين قصدوا معبوداتهم من دون الله على جهة الاستقلال .

🔶 أما الأولون : فقصدوا معبوداتهم لِتُقَرِّبَهُمْ إلى الله فهي عندهم شفعاء ووسائط بخلاف حال مَنْ تأخّر ، وإن زعموا خلافه .

6 الوجه السادس :

🔶 أن عامة شرْك الأولين في الألوهية ، وهو في غيرها قليل .

🔷 أما المتأخرون : فشرْكهم كثير في الألوهية والربوبية ، والأسماء والصفات جميعًا .

7 الوجه السابع :

🔷 أن المتأخرين يزعمون أن قصد الصالحين ودعاءهم والتوجه إليهم من حقهم ، وأن ترْكه جفاء لهم وإزراء بهم .

🔶 ولم يكن الأولون يذكرون هذا .

8 الوجه الثامن :

🔶 أن المشركين الأولين كانوا مقرين بشرْكهم ، كما في تلبيتهم المذكورة آنفًا ، ويسمون رغبتهم إلى مُعَظَّميهم عبادة .

🔷 أما المتأخرون : فيزعمون أنهم بربهم لا يشركون ، ويسمون رغبتهم إلى مُعَظَّميهم : محبة ، وهم في زعمهم كاذبون .

9 الوجه التاسع :

🔶 أن المشركين الأولين كانوا يرجون آلهتهم في قضاء حوائج الدنيا فقط كردّ غائب ووجدان مفقود ، ولا يجعلونهم عُدّة ليوم الدين لإنكارهم البعث أو اعتقادهم أن لهم عند الله بعد البعث حُظْوَة عنده أي رتبةً ومقاما .

🔷 أما المتأخرون : فيريدون من معظَّميهم قضاء حوائج الدنيا والآخرة .

📖 ذكر معنى هذا الوجه حمد بن ناصر بن مُعَمَّر –رحمه الله– .

10 الوجه العاشر :

🔶 أن المشركين الأولين كانوا يعظمون الله وشعائره ؛ فكانوا يعظمون اليمين بالله ، ويعيذون مَنْ عاذ بالله وببيته ، ويعتقدون أن البيت الحرام أعظم من بيوت أصنامهم .

🔷 أما المتأخرون : فإن أحدهم يقسم بالله كاذبًا ، ولا يقسم بمعظَّمه كاذبًا ، ولا يعيذون مَنْ عاذ بالله وببيته ، ويعيذون مَنْ عاذ بمعظَّمهم أو بتربته ، ويعتقدون أن العكوف في المَشَاهِد أعظم من العكوف في المساجد ، وأكثرهم يعتقد أن الاستغاثة بمعظّمه عند قبره أنفع وأنجع من الاستغاثة بالله في المسجد .

📖 وهذا الوجه مستفاد من كلام متفرق للعلامة سليمان بن عبد الله في تيسير العزيز الحميد ، وبعضه في كلام ابن تيمية الحفيد ، والمصنف ، والصنعاني ، وحمد بن ناصر بن مُعَمَّر ، وعبد العزيز بن حُصَين ، وعبد اللطيف بن عبد الرَّحمن بن حسن –رحمهم الله– .

11 الوجه الحادي عشر :

🔶 أن المشركين الأولين لم يكونوا يطلبون من آلهتهم كل ما يُطلب من الرّحمن ، فلهم مطالب يطلبونها من الله وحده .

🔷 أما المتأخّرون فعكسوا الأمر ؛ يطلبون من آلهتهم كل ما يُطلب من الرحمن ، ولهم مطالب لا يطلبونها إلاّ من آلهتهم .

📖 ذكر معنى هذا الوجه ابن تيمية .

12 الوجه الثاني عشر :

🔷 أن المشركين المتأخّرين فيهم من يزعم أنّ الله يتجلّى في صور معبوداتهم من المخلوقات ، ويقولون : نعبدهم لأن الله ظهر في صورهم .

🔶 ولم يكن الأوّلون يقولون : إنّ الله يتجلّى في صور خلقه .

📖 ذكر معناه ابن تيمية الحفيد ، نقله عنه صاحبه ابن القيّم .